شجرتي أنا

أنعطف بالسيارة، فأراها على مبعدة أمام البناء مرمية على طولها فوق الرصيف، أقود بأسرع مما أستطيع، أصل إليها، أنزل من السيارة، أراها ممدَّدة، مستلقية بهدوء، وقد اقتلعت من جذورها.

لا أكاد أصدق، لو ربطت بسلسلة وجرتها دبابة لما قلعت، الجو هادئ، لا عاصفة، ولا ريح، ما الذي اقتلعها؟ في العاصفة الثلجية نزلت، تحت الثلج المنهمر، خفت على أغصانها أن تتكسر أو تتجمد، أزحت عنها ركام الثلج.

قبل ثلاثين عاماً غرستها بنفسي هنا، هنا أمام البناء، بيدي حفرت لها في الرصيف حفرة عميقة، اشتريت لها تراباً أحمر اللون خصباً، بيدي نفيت عنه الحصى والحجارة الناعمة، أحطتها بسياج يحميها، أوصيت أولادي بها، لا تمسكوا جذعها، لا تهزوها، لا تسمحوا لأحد من أولاد الحي بهزها.

وعندما كَبُرَتْ، قلت لهم: لا بأس، العبوا ماشئتم في ظلها، أنتم وأولاد الحي، ولكن لا تؤذوها، كبرَتْ معهم، هي شجرتي أنا، هي شجرتهم، مدت ظلها على الرصيف، أضع

السيارة بجوارها، هي كالحارس لها، تظللها، كالأم، تحميها من الشمس، أغصانها استطالت، علت، بلغت شرفة غرفتي، نفحتني شذاها، جذبت العصافير إلى نافذتي، جعلتني أستيقظ كل صباح على زقزقتها.

أقف أمامها ذاهلاً؟ هل يمكن رفعها؟ هل يمكن غرس جذورها في الحفرة ثانية؟ هل يمكن تثبيتها بدعائم؟ أي سقوط هذا؟ هل يمكن أن تنهض ثانية؟

يا إلهي، هي كجدتي، يوم دخلت،فوجدتها في الحمام، واقعة أمام الحوض، جثة هامدة، لا حس ولا حركة ولا حياة.

أصعد الدرج، ألتقي ولدي:

ـ حامد، أخبرني من اقتلع الشجرة؟

ويجيبني:

ـ حفيدك حسام، نزل إلى المحل المقابل، اشترى دفتراً، وهو يعبر الشارع، جاءت سيارة مسرعة، ولكي تتفاداه، انعطفت نحو الرصيف وضربت الشجرة، فرمتها على الأرض كما ترى.